الفصل السابع

العلاقات اللغويّة الجديدة

عرفت اللغة الشعريّة في العصور الحديثة مذاهب تعبيريّةً شتّى، ومدارس لغويّةً وتصويريّةً متتاليةً تحوّلت باللغة الأدبيّة إلى أنماطٍ جديدةٍ من التعبير لم تكن معروفةً من قبل، وكان ذلك تحت تأثير الغزو الفلسفيّ المكثّف لثقافتنا الحديثة، والتطوّر السريع لأنماط الحياة الصناعيّة والاجتماعيّة والفكريّة، فخرجت العلاقات اللغويّة والتصويريّة فيما بين الألفاظ إلى آفاقٍ جديدةٍ فتحت الأبواب واسعةً لخيال القارئ وتفكيره.

وهكذا وجدنا العلاقات بين الألفاظ تتباعد وتتنافر ليكون لنا من هذا التنافر، وربّما التناقض، إيحاءاتٌ وانعكاساتٌ فكريّةٌ وخياليّةٌ لم تكن لتتاحَ لنا من خلال العلاقات التقليديّة التي اعتدناها بين هذه الألفاظ.

فلم تعد الروابط اللغويّة الجديدة تلتزم بالأبعاد العقليّة أو الحسّية أو المنطقيّة التي كانت تربط بين الكلمة والأخرى ضمن العبارة الواحدة، أو بين المشبّه والمشبّه به ضمن الصورة البيانيّة الواحدة. فقد ينتمي اللفظ إلى حاسة السمع ثمّ يفاجئنا الكاتب أو الشاعر بأن يربطه بلفظٍ ينتمي إلى حاسّة البصر أو الشمّ أو اللمس أو الذوق. أو ربّما يتباعد اللفظان من الناحية العقليّة بحيث يصعب ربط معنى أحدهما من الناحية المنطقيّة بمعنى الآخر، كمثل قولهم: "مرفأ الذاكرة - لحم زنابق - عصير قنابل - شوارع الأيّام - جثّة المكان - قطار الدهشة - عظام السفر - زهر الصمت - شمسٌ سوداء - ضوءٌ مسموع - الصاعقة الخضراء - الوقت المكبّل. . "[1].

(1) ساعي، أحمد بسّام. **حركة الشعر الحديث من خلال أعلامه في سورية**، مرجع سابق، ص307-327.

وقد انتشر هذا النوع من العلاقات اللفظيّة الجديدة في شعرنا بخاصّة بعد ظهور المدرستين الرمزيّة والسرياليّة في الأدب الغربيّ، وتأثُّر الشعراء العرب بهما منذ بدايات القرن العشرين.

هذه الانتفاضة اللغويّة الحديثة التي تبلورت على الأخصّ في النصف الأوّل من القرن العشرين، وهيّأت لها موجاتٌ فلسفيّةٌ وفكريّةٌ وصوفيّةٌ عارمةٌ اجتاحت المساحة الثقافيّة للعالم، كانت قد سبقتها بما لا يقلّ عن ثلاثة عشر قرناً ثورةٌ لغويّةٌ عاصفةٌ وقعت في منطقةٍ نائيةٍ عن الحضارات، وفي بيئةٍ لغويّةٍ لم تكن تملك أيّة مؤشّراتٍ تمهّد لهذه الثورة، وفي جوٍّ ثقافيٍّ لم يكن يُرجى منه أن يتمخّض عن أيّة حركةٍ لغويّةٍ من هذا النوع، مهما كان شكلها أو طبيعتها أو حجمها.

لقد كانت تلك الثورة مفاجِئةً في الزمان؛ إذ بدا عصرها الخامل، ولا سيّما في تلك البقعة من العالم، وكأنّه ليس عصرها، ومفاجِئةً في المكان، فأعماق الجزيرة العربيّة، حيث مكّة والمدينة، كانت أبعدَ ما تكون عن التفاعل والاتصال مع ثقافات العالم حين بدأ الوحي يتنزّل تباعاً ويُفجّر ذلك البركان اللغويّ والحضاريّ الذي استمرّ في التأجُّج والتدفّق على عرب الجزيرة، ومن غير توقّف، على مدى أكثر من عشرين عاماً.

وكانت العلاقات اللغويّة بين الألفاظ أو العبارات من أبرز معالم هذه الثورة، فضلاً عن المعالم الأخرى التي سبق أن فصّلنا القول فيها وسنأتي على المزيد فيما يلي من صفحات.

ربّما لم يكن العربيّ الأوّل، بثقافته الفطريّة اللغويّة والنقديّة، واعياً لأبعاد هذه الثورة أو لنوعيّة العلاقات الجديدة التي فاجأته ودخلت عليه حياته اللغويّة من غير إنذارٍ مسبق، ولكنّه كان واعياً تماماً بأنّ بركاناً لغويّاً، لا يعرف طبيعتَه وكيميائيّته بعدُ، يثور الآن أمامه ويملأ عليه سمعه وبصره.

إعادة تكوين الوحدة اللغويّة:

ومرّت العاصفة بالعرب الأوائل تاركةً ردود فعلٍ عميقةً تتناسب مع

حجمها الهائل. ولكنّ أبناء الجيل الثاني ثم الثالث، وما تتابع بعد ذلك من أجيال، بدأوا يعتادون اللغة القرآنيّة، ومن ثمّ، يفقدون الإحساس بالصدمة التي أحدثتها اللغة الجديدة في نفوس الجيل الأوّل، فلم تعد تستوقفهم كثيراً الظواهر اللغويّة القرآنيّة الجديدة.

لم تعد تستوقفهم كثيراً ظاهرة "الآية"، وهي التي أسّست لمفهومٍ جديدٍ بمقابل مفهوم "الجملة" - وهي الوحدة اللغويّة التي عرفها النثر العربيّ - وبمقابل مفهوم "البيت" - الذي يشكّل الوحدة اللغويّة للشعر العربيّ -.

فقد فصلت الوحدة الجديدة بين ما اعتادوا أن يربطوه، وربطت بين ما اعتادوا أن يفصلوه، وأوجدت بذلك خلخلةً في أساس البناء اللغويّ العامّ استطاعت أن تنفذ معها باللغة العربيّة إلى أبعادٍ وآفاقٍ جديدةٍ أضافتها إلى حدودها التقليديّة السابقة.

واقرأوا معي هذه الكلمات القليلة من مطلع سورة (آل عمران):

- ﴿وأَنزَلَ التوراةَ والإنجيلَ (3) مِن قبلُ هدىً للناسِ وأنزَلَ الفُرقانَ إنّ الذين كَفروا بآياتِ اللهِ لهمْ عذابٌ شديدٌ..﴾ (4)

أرأيتم كيف توقفت الآية (3) قبل أن تنتهي الجملة؛ أي قبل مجيء شبه الجملة (مِن قبلُ) الذي يتعلّق بالفعل (أنزل) الوارد في تلك الآية (أي: أنزَلَ التوراةَ مِن قبلُ)؟ ثمّ كيف حصل العكس في الآية (4) حين استمرّت الآية وامتدّت مع انتهاء الجملة عند لفظ (للناس) وابتداءِ جملةٍ جديدة (وأنزل الفرقان)، ثمّ تستمرّ الآية في التدفّق مع انتهاء الجملة عند لفظ (الفرقان) وابتداء جملةٍ جديدةٍ كلّياً لا علاقة نحويّةً تربطها بالجملة السابقة: "إنّ الذين كفروا بآياتِ اللهِ لهم عذابٌ شديدٌ"؟

ولو تُركت الآيات التالية من سورة (الروم) لتقاليدنا اللغويّة لأعدنا ترقيمها من جديد بحيث تنتهي الآيات عند الخطوط // التي اقترحناها هنا لتكون فواصل بشريّةً تنسجم مع مفهومنا التقليديّ للوحدة اللغويّة:

- ألم(1) غُلِبَتِ الرومُ(2) في أدنى الأرضِ // وهمْ مِن بَعدِ غَلَبِهم

سَيَغلِبون(3) في بِضعِ سنينَ // للهِ الأمرُ مِن قبلُ ومِن بَعدُ // ويومَئذٍ يَفرحُ المؤمنون(4) بنصرِ اللَهِ // يَنصرُ مَن يشاءُ // وهو العزيزُ الرحيم(5)

ومن الواضح أن الفواصل القرآنيّة لهذه الآيات الخمس، والفاصلة هنا هي النقطة التي تتوقّف عندها الآية السابقة لتبدأ الآية اللاحقة، لم يعد لها وجود في تقسيماتنا الجديدة التي اعتمدت على النظام الجمليّ التقليديّ (نظام الجملة).

الوضع الجديد لأدوات الربط التقليديّة:

والنظام الجديد في (الفصل والوصل) الذي استحدثته اللغة الجديدة هو من أكثر الظواهر اللغويّة شيوعاً في القرآن. وأهمّ ما يميّز هذه الظاهرة هو إسقاط أدوات الربط اللغويّة من مثل (الواو والفاء وإذْ وإنّ وإنّما وقد والضمائر المنفصلة) من مواضعها التقليديّة بين الجمل أو العبارات، بحيث يصدمنا اختفاء الحدود الإقليميّة المتعارَف عليها، التي اعتدنا أن تحتلّ مكانها بين جملتين أو عبارتين، اختفاءً أدّى تَواليه وتكراره في القرآن، ثمّ اعتيادُنا عليه مع ابتعادنا عن لحظة الصدمة الأولى، إلى أن تَغفل آذانُنا وسلائقنا اللغويّة الراهنة عن الوعي بحقيقة ما يحدث في لغةٍ أصبحت تعايشنا ونعايشها في كلّ يومٍ وفي كلّ لحظة.

والنماذج القليلة التالية شريحةٌ صغيرةٌ من هذه الظاهرة الأسلوبيّة التي تنتشر في كلّ صفحةٍ من صفحات الكتاب الكريم، وقد أشرنا بخطٍّ تحت المواقع التي تمثّل هذا النوع الجديد من العلاقات اللغويّة. وليحاولْ أحدنا أن يستحضر بذهنه أداة الربط المختفية في كلّ موقعٍ من المواقع المُشار تحتها بخطٍّ في الآيات:

- ﴿وقال الذين لا يَعلمون لولا يُكلّمُنا اللهُ أو تأتينا آيةٌ كذلكَ قال الذين مِن قبلِهم مثلَ قولَهم تشابهتْ قلوبُهم قد بيّنّا الآياتِ لقومٍ يوقنون﴾ [البقرة: 118].
- ﴿قُلْ إنّي على بيِّنةٍ مِن ربّي وكَذّبتُم به ما عندي ما تَستعجِلون به إنِ الحُكْمُ إلّا للهِ يَقُصُّ الحقَّ..﴾ [الأنعام: 57].

- ﴿وقال الآخرُ إنّي أَراني أحمِلُ فوقَ رأسي خُبزاً تأكلُ الطيرُ منه نبِّئنا بتأويلِهِ إنّا نراكَ من المحسنين﴾ [يوسف: 36].
- ﴿وسَخَّرَ الشمسَ والقمرَ كلٌّ يَجري لأجَلٍ مُسمّىً يُدبِّرُ الأمرَ يُفصِّلُ الآياتِ لعلّكم بلقاءِ ربِّكم توقنون﴾ [الرعد: 2].
- ﴿وأْمُرْ أهلَكَ بالصلاةِ واصطبرْ عليها لا نسألُكَ رزقاً نحن نرزُقُكَ والعاقبةُ للتقوى﴾ [طه: 132].
- ﴿ألم تَعلمْ أنّ اللهَ يعلمُ ما في السماءِ والأرضِ إنّ ذلك في كتابٍ إنّ ذلك على الله يسيرٌ﴾ [الحجّ: 70].
- ﴿.. ثلاثَ مرّاتٍ مِن قبلِ صلاةِ الفجرِ وحين تضعون ثيابَكم من الظَهيرةِ ومِن بَعدِ صلاةِ العِشاءِ ثلاثُ عوراتٍ لكم ليس عليكم ولا عليهم جُناحٌ بَعدَهُنّ طوّافون عليكم بعضُكم على بعضٍ كذلك يُبيِّنُ اللهُ لكمُ الآياتِ﴾ [النور: 58].
- ﴿وقالتِ امرأةُ فِرعَونَ قُرّةُ عَينٍ ليْ ولكَ لا تقتلوهُ عسى أن يَنفعَنا﴾ [القَصص: 9].
- ﴿إنّما تَعبُدون مِن دونِ اللهِ أوثاناً وتَخلُقون إفكاً إنّ الذين تعبُدون مِن دونِ اللهِ لا يَملِكون لكمْ رِزقاً فابتغوا عندَ الله الرزقَ واعبدوه واشكُروا له إليه تُرجَعون﴾ [العَنكبوت: 17].
- ﴿وأُمِرْتُ لِأعْدِلَ بينَكمُ اللهُ ربُّنا وربُّكمْ لنا أعمالُنا ولكمْ أعمالُكمْ لا حُجّةَ بينَنا وبينَكمُ اللهُ يَجمعُ بينَنا وإليهِ المصير﴾ [الشُورى: 15].

هذا النوع من الحذف ليس مجرّد أسلوبٍ لغويٍّ جديدٍ أضافه القرآن الكريم إلى اللغة العربيّة فحسب، ولكنّه إضافةٌ فكريّةٌ وبلاغيّةٌ هامّةٌ، لأنّه يمنح التعبير أبعاداً معنويّةً وظلالاً خياليّةً لم يكن لِيَملكها من غيره.

وعندما تجتمع أنواعٌ عديدةٌ من هذا الحذف في آيةٍ واحدةٍ نجد الآية وقد اكتسبت بهذا الاجتماع بلاغةً وشفافيةً إضافيّتين. ولنقرأ هذه الآية:

- ﴿أفمَن هو قائمٌ على كلِّ نفْسٍ بما كسبَتْ وجعلوا للهِ شُركاءَ قُلْ سَمُّوهُم أم

تنبّئونه بما لا يعلمُ في الأرضِ أم بظاهرٍ من القولِ بل زُيِّن للذين كفروا مكْرُهم وصَدّوا عن السبيل﴾ [الرعد: 33].

فإذا بحثنا عن المحذوفات في الآية فأعدناها إلى أماكنها، كما يمكن أن تكون في لغتنا البشريّة، فستكون النتيجة شيئاً من هذا القبيل:

أفَـ[هكذا يكون] مَن هو قائمٌ على كلِّ نفْسٍ بما كسبَتْ و[قد] جعلوا للهِ شُركاءَ [فـ]قُلْ [لهم] سَمُّوهُم [إذن] أم [تظنّون أنّكم] تنبّئونه بما لا يعلمُ [بما يوجد] في الأرضِ أم [إنّ هذا] بظاهرٍ من القولِ [منكم] بل [الحقّ أنّه قد] زُيِّن للذين كفروا مكْرُهم وصَدّوا عن السبيل.

فيكون الحذف قد شمل عشرة مواقع على الأقلّ في هذه الآية الواحدة.

ويكثر مثل هذا الحذف في المقاطع القصصيّة من القرآن، ليدلّ أحياناً على وجود حذفٍ إضافيٍّ آخر أكبر منه قد سبقه، وكثيراً ما يكون ذلك المحذوف جزئيّةً أو حركةً من القصّة أوحى بها حذفُ الأداة أو الكلمة. وللقارئ أن يتصوّر الجزئيّات المحذوفة في الآيات التالية، وقد أشير إلى مواقع الحذف بخطوطٍ تحتها:

- ﴿فجاءتْه إحداهما تمشي على استحياءٍ قالت إنّ أبي يدعوكَ ليَجْزيَكَ أجْرَ ما سَقَيتَ لنا فلمّا جاءه وقَصَّ عليه القَصصَ قال لا تَخَفْ نجوتَ من القوم الظالمين. قالت إحداهما يا أبتِ استأجِرْهُ إنّ خيرَ مَنِ استأجَرْتَ القويُّ الأمين. قال إنّي أريدُ أن أُنكِحَكَ إحدى ابنتيَّ هاتين على أن تَأجُرَني ثمانيَ حِجَجٍ فإنْ أتمَمْتَ عَشْراً فمِن عِندِكَ وما أريدُ أن أَشُقَّ عليك ستجدُني إن شاءَ اللهُ من الصالحين. قال ذلك بيني وبينَكَ أيَّما الأجَلَين قضيتُ فلا عُدوانَ عليّ واللهُ على ما نقولُ وكيلٌ. فلمّا قضى موسى الأجَلَ وسارَ بأهلِه آنَسَ مِن جانبِ الطُورِ ناراً قال لأهلِه امكُثوا إنّي آنسْتُ ناراً لعلّي آتِيْكُمْ منها بخبرٍ أو جَذْوةٍ﴾ [القَصص: 25 - 28].

دور الأُلفة في حجب العلاقات الجديدة:

لقد غدت العلاقات اللغويّة الجديدة بين الألفاظ والجمل والعبارات على

مرّ السنين جزءاً من حياتنا اليوميّة بتعايشنا المستمرّ مع القرآن وآياته، بحيث أفقدتنا ألفتُنا لها الشعورَ بجدّتها كما شعر بها العربيّ الأوّل. وهكذا يبتعد العهد بالعرب عن حقبة الصدمة الأولى، فيفقدون مثلاً، وهم يردّدون سورة (الفاتحة) في صلواتهم كلّ يوم سبع عشرة مرّةً على الأقلّ، الشعور بتيّار الهزّة اللغويّة التي أصابت آباءهم أو أجدادهم حين سمعوها أوّل مرّة، بحيث غدوا غير قادرين على تحسّس خصائصها اللغويّة الجديدة ووضع أيديهم بسهولةٍ على الفوارق المدهشة التي تميّز لغتهم البشريّة عن لغة السماء.

لقد غدا العرب شبه عاجزين، إن لم يكونوا عاجزين تماماً، عن أن يدركوا ما في سورتهم اليوميّة هذه من علاقاتٍ لغويّةٍ مباينةٍ لِما عهدوه من علاقات. فالروابط بين الجمل/ الآيات كثيراً ما تختفي حيث اعتادوا أن تظهر، والفواصل بين أجزاء الجملة الواحدة كثيراً ما تظهر حيث اعتادوا أن تختفي، والعلاقة بين اللفظ والآخر قد تتحوّل، إذا قيست بمقاييسنا الأسلوبيّة التقليديّة، إلى لغزٍ محيِّر.

فهذه جملةٌ واحدةٌ، في تعريفهم المتوارَث للجملة، تتوزّع بين ثلاث آياتٍ من السورة، فالتعريف القديم للوحدة التعبيريّة لم يعد يسري على لغة القرآن الكريم؛ إذ حلّت محلّه فيه الوحدةُ اللغويّة الجديدة (الآية):

- ﴿الحمدُ للهِ ربِّ العالمين. الرحمنِ الرحيمِ. مالكِ يومِ الدين﴾.

ألا ترون معي أنّ الآيات الثلاث ما هي إلّا جملةٌ واحدةٌ مؤلّفةٌ من مبتدأ (الحمد) وخبره (لله) ثمّ عدّة صفاتٍ تلحق بهذا الخبر: ربّ العالمين - الرحمن - الرحيم - مالك يوم الدين. وليس لهذه الصفات جميعاً اعترافٌ نحويٌّ بأنّها جملة، فهي لم تُضِف إلى الجملة الأساسيّة، على كثرتها، أيّ (فعلٍ) أو (مبتدأ) أو (خبر) وهذه الشخصيّات الثلاث هي الوحيدة التي تملك بطاقات عضويّةٍ تسمح لها بدخول نادي الجملة. فأين المفهوم اللغويّ المعروف للجملة إذن؟ وهل حلّت الآية محلّ تلك الوحدة الأساسيّة القديمة؟

ولكنّنا، حين نصل بعد ذلك في السورة إلى الجملة الحقيقيّة التقليديّة، والمؤلّفة من فعلٍ وفاعلٍ ومفعولٍ (إيّاك نعبد)، نجدها وقد ارتبطت بجملةٍ

أخرى (وإيّاك نستعين) لم تحمل هويّة (آية) بل جاءت تحت مظلّة الآية الخامسة نفسها التي غطّت (إيّاك نعبد).

وإذن فأمامنا الآن جملتان انحصرتا في آيةٍ واحدة، وإن كنّا خرجنا لتوّنا من جملةٍ واحدةٍ استغرقت ثلاث آيات!! فأين ذهب المفهوم القديم للوحدة التعبيريّة الأساسيّة؟ وما سرّ هذه التركيبة القرآنيّة المبتكرة التي ستحلّ محلّ التركيبة القديمة؟

فإذا تجاوزنا هذا المأزق اللغويّ إلى الآية السادسة وجدنا أنفسنا أمام مفاجأةٍ لغويّةٍ أخرى: فأين الرابط التقليديّ الذي يربط الجملة اللاحقة (اِهدنا الصراطَ المستقيم) بالجملة السابقة؟ فلا حرف عطفٍ ولا حرف استئنافٍ ولا أيّ رابطٍ لغويٍّ آخر! ربّما كانت السليقة العربيّة تتوقّع أن تسمع الجملة هكذا: (إيّاك نعبد وإيّاك نستعين [فـ]ـاهدنا الصراط المستقيم).

أترون إلى أساطيل من السفن الضخمة صُنعت من ألواح الحديد الصُلب، وقد ضُمّ فيها اللوح إلى الآخر بمسامير بارزةٍ تصطفّ عند أطراف الألواح لدى التقاء أحدها بالآخر، وفجأةً تنزل إلى البحار سفينةٌ أكثر حداثةً وتطوّراً ليس فيها أثرٌ للمسامير، وقد بدت الألواح المعدنيّة الضخمة فيها وكأنّها قطعةٌ واحدة، فكيف نصنّف السفينة بين السفن الأخرى بمقاييس الجمال وتفوّق الصنع والإتقان؟

ولكم - وأستغفره تعالى من استخدام أيّ مثالٍ بشريٍّ في شرح إعجازه وله دائماً المثل الأعلى - أن تتصوّروا الوحدة اللغويّة القرآنيّة وكأنّها وحدةٌ نقديّةٌ جديدةٌ توشك أن تحلّ في بلدٍ محلّ وحدةٍ نقديّةٍ اعتاد الناس أن يتعاملوا بها لقرونٍ عديدة!

إنّ العربيّ الآن مقبلٌ على أعرافٍ لغويّةٍ جديدة، وتقنيةٍ تعبيريّةٍ متطوّرةٍ يجب أن يكون مستعدّاً لاستقبالها، وربّما لإعادة النظر من خلالها في كلّ أعرافه اللغويّة القديمة المتوارثة، مع أنّ كثيراً منها ظلّ، وسوف يظلّ، مقتصراً على لغة القرآن الكريم، فلا يتجاوزها إلى لغتنا، ولا إلى لغة الحديث الشريف أيضاً.

وأقرب النماذج اللغويّة غير القرآنيّة إلى هذه الظاهرة التعبيريّة التي يختصّ بها القرآن الكريم هو الأذان. فالروابط اللغويّة التقليديّة تنعدم بين عباراته، فلا نجد منها ما يربط بين عبارة (الله أكبر) والعبارة التي تليها مباشرةً (أشهد أن لا إله إلّا الله)، ولا ما يربط بين هذه الأخيرة وعبارة (أشهد أنّ محمّداً رسول الله) ولا ما بين هذه وعبارة (حيّ على الصلاة) ولا ما بين هذه و(حيّ على الفلاح) وهكذا حتّى نهاية الأذان.. مع ضرورة التذكير هنا بأنّ الأذان، وإن لم يكن من القرآن، فإنّه لم يكن من لغة النبيّ ﷺ أيضاً، وهو ما تؤكّده لنا الأحاديث الشريفة[2]..

ويشارك الأذان في هذه الصفة جزءٌ آخر هامٌّ من صلاتنا هو دعاء (التحيّات). وهذا الجزء، في نظري، هو قمّة الصلاة، وكأنّ القراءات التي تسبقه، من تكبيرة الإحرام إلى الفاتحة إلى السورة إلى الركوع والسجود وتسبيحاتهما، كلّ ذلك تمهيدٌ للدخول على الحضرة الإلهية والسماح بإلقاء التحيّة الخاصّة جدا عليها (التحيّات لله والصلوات والطيّبات)، التي يتبعها مباشرةً تحيّةٌ للرسول ﷺ ولكنّها من نوعٍ آخر مختلف، ثم تحيّتنا لأنفسنا

(2) ورد في سنن أبي داود، عن عبد الله بن زيد قال: لما أمر رسول الله ﷺ بالناقوس يُعمل ليضرب به للناس لجمع الصلاة؛ طاف بي وأنا نائمٌ رجلٌ يحمل ناقوساً في يده، فقلت: يا عبد الله، أتبيع الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ فقلت: ندعو به إلى الصلاة، قال: أفلا أدلّك على ما هو خيرٌ من ذلك؟ فقلت له: بلى، قال: فقال: تقول الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أنّ محمداً رسول الله أشهد أنّ محمداً رسول الله، حيّ على الصلاة حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح حيّ على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله. قال: ثم استأخر عنّي غير بعيد، ثمّ قال: وتقول إذا أقمت الصلاة: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أنّ محمداً رسول الله، حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله. فلما أصبحت؛ أتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما رأيت، فقال: إنّها لرؤيا حقٌّ إن شاء الله، فقم مع بلالٍ فألقِ عليه ما رأيت فليؤذّن به، فإنه أندى صوتا منك. فقمتُ مع بلال، فجعلت ألقيه عليه ويؤذّن به. قال: فسمع ذلك عمر بن الخطاب وهو في بيته، فخرج يجرّ رداءه ويقول: والذي بعثك بالحقّ يا رسول الله لقد رأيت مثل ما رأى، فقال رسول الله ﷺ: فلله الحمد.

ولعباد الله الصالحين في السماء والأرض. إنّنا، مرّةً أخرى، لا نجد أيّ رابطٍ لغويٍّ يربط بين العبارات الأربع التي تتكوّن منها هذه التسبيحة:

التحيّاتُ للهِ والصلواتُ والطيّبات.

السلامُ عليكَ أيّها النبيُّ ورحمةُ اللهِ وبركاتُه.

السلامُ علينا وعلى عبادِ اللهِ الصالحين.

أشهدُ أنْ لا إلهَ إلّا الله، وأشهدُ أنّ محمّداً عبدُه ورسولُه.

وبدهيٌّ أنّه لو أُوكل الأمر إلى لغتنا لكان هناك (واوٌ) على الأقلّ في مطلع كلٍّ من العبارات الثلاث الأخيرة. ولا بدّ من التذكير هنا أيضاً بأنّ أركان الصلاة، ومنها هذه التسبيحة، كانت جزءاً من الأمر الإلهيّ الذي تلقّاه الرسول ﷺ خلال رحلة المعراج إلى السماء. إنّها إذن ليست من القرآن الكريم، ولكنّها أيضاً ليست جزءاً عادياً من الحديث الشريف.

العلاقات الجديدة بين الألفاظ:

هذا كلّه يأخذ مكانه بين الآيات أو الجمل، فماذا عن الألفاظ وعلاقتها بعضها ببعض؟

إنّ في الآية الرابعة من الفاتحة أمراً غريباً لم يعِ العربيّ الأوّل - بطبيعة الحال - (ميكانيكيّته)، ولكنه استشعر، دون أيّ شكٍّ، طبيعته المختلفة عن طبيعة تعبيره، وهَزّتْه قوّةُ الصدمة التي تلقّاها وهو يسمع الآية أوّل مرّة، من غير أن يُدخل هذه الآية إلى مخبره اللغويّ النقديّ - وهو مَخبرٌ كان ما يزال فطريّاً وبدائيّاً ومفتقراً إلى أبسط أدوات البحث والتحليل المتطوّرة التي نملكها اليوم - فيعاين أبعاد هذه الصدمة ويكتشف كيميائيّة تركيبتها الغريبة.

فهذه العلاقة الجديدة بين اللفظين (مالك) و(يوم) لم يكن يعرفها قاموس العربيّ - ولا غير العربّي - حتّى تلك اللحظة.

لقد اعتدنا إسنادَ (المُلك) إلى محسوسٍ يمكن أن يُمتلَك، فنقول: مالك العقار، ومالك الدراهم، ومالك الدرّاجة، ومالك السيّارة، ومالك الباخرة..

فكيف إذن يُملك اليوم؟! وهل للزمن مُلكيّة؟ وهل تقبل البنوك والسجلّات العقاريّة والماليّة فتح حساباتٍ وأرصدةٍ من الساعات والأيّام؟!

إنّها مفاجأةٌ لغويّةٌ ذات مذاقٍ خاصٍّ جدّاً لدى العربيّ الأوّل، ولكنّ مفاجأةً أخرى تنتظره عند المنعطف، فحالما يجتاز هذه الإشارة المروريّة المُربِكة تضيء له إشارةٌ أخرى خارجةٌ عن حساباته، وتنتصب له بين اللفظين (يوم) و(الدين).

لقد اعتاد العربي، وكذلك غير العربيّ، أن يضيف الزمن دائماً لحدثٍ يحدث في هذا الزمن، فيقول:

دقيقة صمتٍ،

وساعة عملٍ،

ويوم المعركة،

وشهر الصيام،

وعام الحزن،

وفترة الحرب،

وعصر النهضة..

فالصمت والعمل والمعركة والصيام والحزن والحرب والنهوض كلّها أحداثٌ تقع في حيّز الزمن الذي ورد لفظُه قبل هذه الأحداث فأضيفت إليه. والمفاجأة هنا أنّ لفظ (الدين) في قاموس العربيّ الأوّل، حتّى تلك اللحظة على الأقلّ، لم يكن فيه معنى الحدث، لأنّ الدين عنده ليس أمراً يَحدُث بل أمرٌ يُعتَقَد، فإضافته إلى الزمن (يوم) ستوقع تشابكاً مروريّاً أو إرباكاً لغويّاً جديداً في رأسه، وهو لمّا يصْحُ بعدُ من الإشكال المروريّ الذي تجاوزه لتوّه في إسناد المُلك إلى اليوم.

وهكذا تتزاحم المنعطفات/ المفاجآت واحداً تلو الآخر أمام العربيّ وهو يشقّ طريقه داخل السورة، وكذلك في باقي سوَر الكتاب الكريم، ليستوعب

ذوقُه البشريّ القاصر هذه الرسائل "البرقيّة" القصيرة والمركّزة وغير العاديّة تتتالى عليه تباعاً من السماء، فتعرض أمامه شريطاً لم يألفه من العلاقات اللغويّة الجديدة: فيما بين الجمل، وفيما بين العبارات، وفيما بين الألفاظ.

ولنتوقّف عند نموذجٍ آخر من هذه "المنعطفات المروريّة" وهو ذلك الاقتران العجيب بين (الخلق) و(الموت) في قوله تعالى:

- ﴿الذي خَلَقَ الموتَ والحياةَ﴾ [تبارك: 2].

قد لا يثير دهشتَنا كثيراً قولُه تعالى (خَلقَ الحياة) فالحياة وجودٌ والخلق إيجاد، ولا تعارض بين الإيجاد والوجود، بل تكاملٌ وتتابُعٌ وتكامُل، ولكنّ المفاجأة هي في قوله تعالى (خلقَ الموت)!

فالخلق إبداعٌ وحياة، والموتُ إفناءٌ وخراب، فكيف يجتمع الخلق مع الموت؟ إنّنا لن نجد غرابةً في قول أحدنا: بنيت جداراً، أو: بنيت بناءً، ولكنّنا سنستغرب كثيراً لو قال: بنيتُ هَدْماً، أو: أسّستُ داراً. وواضحٌ أنّ في هذا الاجتماع الغريب بين المتناقضين في الآية إشعاراً إلى البشر بضرورة الموت وحتميّة وجوده، جنباً إلى جنبٍ مع الحياة، وإلى أنّه عنصرٌ من عناصر البقاء لا يكتمل الكون إلّا به، ولا تكون حياةٌ من غيره. إنّه بمعنىً آخر صنوٌ متمّمٌ للحياة.

هذه العلاقات الجديدة بين الألفاظ سمةٌ بارزةٌ تميّز لغة القرآن الكريم، ولها وجوهٌ متعدّدةٌ تتجاوز بكثيرٍ ما سقناه حتّى الآن من أمثلة. وفي الآيات التالية نماذج مختلفةٌ من هذه الوجوه، تمثّل بعضَها وليس كلّها، ولكنّها تستطيع أن تقدّم لنا، لو نزعنا أنفسنا من ثيابنا ونزلنا في ثياب العربيّ الأوّل، فكرةً عن حجم الصدمة التي تعرّض لها ذلك العربيّ وهو يتلقّى، ولله المثل الأعلى، هذه الصعقات الكهربائيّة المنهالةَ عليه من السماء:

- ﴿ثمّ استوَى إلى السّماءِ وهْي دخانٌ فقال لها ولِلأرضِ ائتِيا طَوعاً أو كَرْهاً﴾ [فُصّلَت: 11]

(كيف استقبل العربيّ يا ترى هذا "الاستواء" إلى السماء، ثمّ هذا

الحوار الإلهيّ مع السماء والأرض! و"مجيئهما" طائعتين أو كارهتين وهما على تلك الحالة "الدخانيّة" العجيبة التي كانتا عليها، والبعيدة عن حدود الخيال العربيّ؟)

- ﴿وقالوا لجلودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ علينا قالوا أَنْطَقَنا اللهُ الذي أَنْطَقَ كُلَّ شيءٍ﴾ [فُصِّلَت: 21]

(وكيف استقبل هذا العربيّ فكرة الجلود التي تتكلّم و"تشهد" ضدّ أصحابها؟!)

- ﴿وتَرى كلَّ أمّةٍ جاثيةً كلُّ أمّةٍ تُدعَى إلى كِتابِها اليومَ تُجزَوْنَ ما كنتمْ تَعمَلون﴾ [الجاثية: 28]

(وكيف استقبل صورة أممٍ وشعوبٍ كاملةٍ وهي راكعةٌ تنتظر "سجلّها" الضخم - أيّة ضخامةٍ هذه؟! - ليُعرض عليها يومَ الحساب؟!)

- ﴿وانشقّت السماءُ فهي يومَئذٍ واهية﴾ [الحاقّة: 16]

(وكيف استقبل صورة السماء وهي تنشطر وتتمزّق؟!)

- ﴿والمَلَكُ على أرجائِها ويَحمِلُ عرشَ ربِّكَ فوقَهم يومَئذٍ ثمانيةٌ﴾ [الحاقّة: 17]

(وكيف تلقّى مشهد عرش الرحمن تحمله الملائكة وتحفّ به في كلّ أطراف السماء)

- ﴿وإذا البحارُ سُجِّرَت﴾ [التكوير: 6]

(وكيف استوعب صورة احتراق البحار، واشتعال المياه فيها؟!)

- ﴿فإذا النجومُ طُمِسَت﴾ [المرسَلات: 8]

(وانمحاء النجوم والكواكب؟!)

- ﴿وجُمِعَ الشمسُ والقمر﴾ [القيامة: 9]

(والتحام الشمس بالقمر؟!)

- ﴿وفُتحتِ السماءُ فكانت أبوابا﴾ [النبأ: 19]

(وانفتاح بوّاباتٍ في السماء؟!)

-﴿وسُيِّرتِ الجبالُ فكانت سَرابا﴾ [النبأ: 20]

(وتحرّك الجبال ثمّ تبخّرها كالسّراب؟!)

- ﴿وإذا القبورُ بُعثِرتْ﴾ [الانفطار: 4]

(وانتفاض القبور بأهلها، وانبعاثهم إلى الحياة من جديد؟)...

ولا تتوقّف الغرابة في العلاقات الجديدة عند مجرّد الحديث عن الحقائق الكونيّة الكبرى، والمشاهد المذهلة التي تصاحب الأحداث العظيمة ليوم القيامة ويوم الحساب، كما في الآيات السابقة، بل تتجاوز ذلك إلى الربط غير التقليديّ للكلمة، أيّة كلمة، بالأخرى، وهو ربطٌ لم يمارسه العربيّ في لغته قطّ، لا قبل القرآن ولا بعده، إلّا أن يستشهد بآيةٍ أو يقتبس مصطلحاً قرآنيّاً تَحقّق فيه مثلُ ذلك الأسلوب من العلاقات، كما في الآيات:

-﴿صِبغةَ اللهِ ومَن أحسنُ من اللهِ صِبغةً﴾ [البقرة: 138]

(لاحظ اللقاء الفريد وغير العاديّ بين اللفظين "صبغةَ" و"الله")

- ﴿لَفي شِقاقٍ بعيد﴾ [البقرة: 176]

(والجمع غير المتوقَّع بين الاسم "شقاق" والوصف "بعيد")

- ﴿أخَذَتْه العِزّةُ بالإثم﴾ [البقرة: 206]

(والعلاقة غير التقليديّة بين لفظَي"الأخذ" و"العزّة"، ثمّ بين هذا الأخير و"الإثم")

- ﴿منه آياتٌ مُحكَماتٌ هنّ أمُّ الكتاب﴾ [آل عمران: 7]

(والإضافة الغريبة للفظ "الأمّ" إلى "الكتاب")

- ﴿فئةٌ تقاتِلُ في سبيلِ الله﴾ [آل عمران: 14]

(والعلاقة الخياليّة المحيِّرة بين "القتال" و"السبيل"، ثمّ بين "السبيل" و"الله")

وبإمكان القارئ أن يُجري بنفسه مثل هذه التحليلات في الآيات التالية

لاكتشاف أنواعٍ جديدةٍ من هذه العلاقات، وقد أشرنا بخطوطٍ تحت الألفاظ المعنيّة، والتي كانت غايةً في البعد عن ذهن العربيّ الأوّل، وربّما عن أذهاننا نحن أيضاً رغم مرور أكثر من أربعة عشر قرناً على نزول الوحي:

- ﴿مِن عَزْمِ الأمور﴾ [آل عمران: 186]
- ﴿أو نَلعَنَهم كما لَعَنّا أصحابَ السبتِ﴾ [النساء: 47]
- ﴿إنّ اللهَ عليمٌ بذاتِ الصدور﴾ [المائدة: 7]
- ﴿وأُحضِرتِ الأنفُسُ الشُحَّ﴾ [النساء: 128]
- ﴿أو يَلبِسَكُم شِيَعاً ويُذيقَ بعضَكم بأسَ بعضٍ﴾ [الأنعام: 65]
- ﴿لقد تَقَطَّعَ بينَكم وضَلَّ عنكم ما كنتُم تَزعُمون﴾ [الأنعام: 94]
- ﴿أفأَمِنوا مَكْرَ اللهِ فلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إلّا القومُ الخاسرون﴾ [الأعراف: 99]
- ﴿وإنّه لَحَقُّ اليقين﴾ [الحاقّة: 51]
- ﴿وأنّه تعالى جَدُّ ربِّنا﴾ [الجِنّ: 3]
- ﴿وأنّا كُنّا نقعُدُ منها مَقاعدَ لِلسَمْعِ﴾ [الجِنّ: 9]
- ﴿إنّ ناشئةَ الليلِ هي أشدُّ وَطْأً﴾ [المزّمّل: 6]
- ﴿بلى قادرينَ على أنْ نُسوّيَ بَنانَه﴾ [القيامة: 4]
- ﴿ويَذَرونَ وراءَهم يوماً ثقيلاً﴾ [الإنسان: 27]
- ﴿والمُرسَلاتِ عُرفاً﴾ [المرسَلات: 1]
- ﴿ذلك اليومُ الحقُّ﴾ [النبأ: 39]
- ﴿والنازعاتِ غَرْقاً﴾ [النازعات: 1]
- ﴿فأخذه اللهُ نَكالَ الآخرةِ والأولى﴾ [النازعات: 25]

الروابط الجديدة بين الأداة والفعل:

ومن أهمّ العلاقات الجديدة التي أضافها القرآن إلى المعجم اللغويّ للعربيّة ربطُ الأفعال بغير ما اعتاد العرب أن يربطوها به من أدوات، مّما يعطيها، بالربط الجديد، معاني جديدةً مغايرةً لم تكن لها من قبل.

واقرأوا معي هذه الآيات، وتفحّصوا كلّ فعلٍ عَلَّقتُ عليه فوضّحته بما يقابله عادةً في لغتنا اليوميّة، وأشرتُ تحته وتحت ما تعدّى به أو إليه بخطّ، وقارنوا بين معناه التقليديّ كما نجده في معاجمنا ولغتنا العاديّة، ومعناه القرآنيّ الجديد الذي اكتسبه من خلال تعْديته الجديدة إلى مفعوله، أو ربطِه بما بعده بغير الأداة أو الرابط الذي تعارف العرب عليهما، وقد وضعت المعنى القرآنيّ للّفظ والأقرب إلى لغتنا في الاستعمال الجديد بين تنصيصين " ":

- ﴿تلك حدودُ اللهِ فلا تعتدوها (أي تعتدوا عليها وتخالفوها، أو "تتجاوزوها" معتدين﴾ [البقرة: 229]
- ﴿لَيَجمَعَنّكم إلى يومِ القيامةِ لا ريبَ فيه (أي "يُحضركم في" يوم القيامة﴾ [الأنعام: 12]
- ﴿وتَنحِتون الجبالَ بيوتاً (أي تنحتون منها، أو "تجعلونها بالنحت"﴾ [الأعراف: 74]
- ﴿وعَتَوا عن أمرِ ربِّهم (أي انحرفوا بعُتوٍّ عنه، أو"خرجوا"﴾ [الأعراف: 77]
- ﴿ثمّ بَعَثنا مِن بَعدِهم موسى بآياتِنا إلى فِرعَونَ ومَلَئِهِ فظَلَموا بها (أي "كذّبوا" بها ظلماً﴾ [الأعراف: 103]
- ﴿قال أغيرَ اللهِ أبغيكمْ إلهاً (أي "أبغي لكم"﴾ [الأعراف: 140]
- ﴿قال أعَجِلْتُم أمْرَ ربِّكم (أي عجلتم عنه، أو "خالفتم" أمره بسرعة﴾ [الأعراف: 150]
- ﴿واقعُدوا لهم كلَّ مَرصَدٍ (أي اقعدوا مترصّدين لهم، أو "ترصّدوا" لهم﴾ [التوبة: 5]
- ﴿إنِ استحبّوا الكُفرَ على الإيمان (أي اختاروه، أو "فضّلوه" على الإيمان﴾ [التوبة: 23]
- ﴿أرضِيتُم بالحياةِ الدنيا من الآخرة (أي قبلتم بها "بدلاً" من الآخرة﴾ [التوبة: 38]
- ﴿واستبقا البابَ (أي تسابقا إليه أو "ابتدراه"﴾ [يوسف: 25]

- ﴿وقد أَحسَنَ بي إذْ أخرَجَني من السِجنِ (أي أحسن إليّ، أو "اعتنى" بي﴾ [يوسف: 100]
- ﴿ولا تَعْدُ عيناكَ عنهم (أي لا تتجاوزهم، أو "تنصرف" عنهم﴾ [الكهف: 28]
- ﴿فلْيَحذَرِ الذين يُخالفون عن أمرِه (أي يخالفون أمره، أو "يخرجون" عنه﴾ [النور: 63]
- ﴿وكم أهلكْنا مِن قريةٍ بَطِرَتْ معيشتَها (أي بطِرت بها، أو "جحدتها"﴾ [القصص: 58]
- ﴿والذين يَمكُرون السيّئاتِ (أي يمكرون بارتكابها، أو "يأتونها" بمكرٍ﴾ [فاطر: 10]
- ﴿إنّي أحببتُ حُبَّ الخيرِ عن ذِكرِ ربّي (أي "آثرتُه" عنه﴾ [ص: 32]
- ﴿فويلٌ للقاسيةِ قلوبُهم مِن ذِكرِ الله (أي المتّصفة "بقسوةٍ تفرّغها" من الذّكر﴾ [الزُمر: 22]
- ﴿ثمّ تَلينُ جلودُهم وقلوبُهم إلى ذِكرِ الله (أي تسكُن وتلين "مستسلمةً" إليه﴾ [الزُمر: 23]
- ﴿ويستجيبُ الذين آمنوا وعمِلوا الصالحاتِ (أي يقبل عبادتَهم، أو "يسمعهم"﴾ [الشورى: 26]
- ﴿ومَن يبخلْ فإنّما يَبخَلُ عن نفْسِه (أي "يُمسِك الثواب" عنها، أو يبخل عليها﴾ [محمّد: 38]
- ﴿وأنفِقوا خيراً لأنفُسِكم (أي أنفقوا عليها، أو "قدِّموا" لها بالإنفاق خيراً﴾ [التغابن: 16]
- ﴿عَيناً يَشربُ بها عبادُ الله (أي منها، أو يشربون "منعَّمين بها"﴾ [الإنسان: 6]

العلاقات اللغويّة الجديدة في (المدّثّر):

ولأخذ فكرةٍ تقريبيّةٍ عن مدى سعة هذه الظاهرة من العلاقات اللغويّة الجديدة في لغة القرآن الكريم نتوقّف في نهاية المطاف عند سورة (المدّثّر) – وقد اخترناها، كما أسلفنا، لإجراء تطبيقاتنا اللغويّة في بعض الفصول،

بوصفها إحدى السوَر المبكّرة في النزول – فنبحث في آياتها عن المواقع التي تتكرّر فيها هذه العلاقات بأنواعها المختلفة.

ويبرز في السورة بوضوحٍ عجيبٍ ظاهرةُ التخلّي عن مفهوم الوحدة اللغويّة التقليديّة، وهي الجملة. فعلى حين تتميّز آيات السورة بالقصر الشديد، فضلاً عن وجود ثلاثة مواقع في السّورة انتهت فيهما الآية قبل أن تنتهي الجملة (الآيات: 1 و38 و40)، نجد أنّ آيةً واحدةً منها قد اشتملت على ما لا يقلّ عن عشر جملٍ كاملةٍ (الآية: 31)، كما سنجد في السورة ما لا يقلّ عن 20 موقعاً اختفى منها الرابط اللغويّ التقليديّ الذي يربط الكلمة أو العبارة أو الجملة (أو الآية) بما قبلها، أو توزّعت الجملة الواحدة فيها بين آيتين. ولنقرأ السورة معاً، وقد أشرت إلى هذه المواقع بخطوطٍ تحتها:

يا أيّها المدّثّر. قُمْ فأنذِر. وربَّكَ فكبِّرْ. وثيابَكَ فطهّر. والرُجْزَ فاهجُر. ولا تَمنُنْ تستكثِرْ. ولربِّكَ فاصبِر. فإذا نُقِرَ في الناقور. فذلك يومَئذٍ يومٌ عسيرٌ. على الكافرين غيرُ يسيرٍ. ذَرني ومَن خَلقْتُ وحيداً. وجعلتُ له مالاً ممدوداً. وبنينَ شُهوداً. ومهّدْتُ له تمهيداً. ثمّ يَطمعُ أن أزيدَ. كلّا إنّه كان لآياتنا عنيداً. سأُرهقُه صَعوداً. إنّه فكَّرَ وقَدَّر. فقُتِلَ كيف قَدَّر. ثمّ قُتِلَ كيف قَدَّر. ثمّ نَظَر. ثمّ عبَسَ وبَسَر. ثمّ أدبَرَ واستَكبَر. فقال إنْ هذا إلّا سِحْرٌ يُؤثَر. إنْ هذا إلّا قولُ البشر. سأُصْلِيْه سَقَر. وما أدراكَ ما سَقَر. لا تُبْقي ولا تَذَر. لَوّاحةٌ للبَشَر. عليها تسعةَ عشَر. وما جَعَلْنا أصحابَ النارِ إلّا ملائكةً وما جَعلْنا عِدّتَهم إلّا فتنةً للذين كفروا ليستيقنَ الذين أوتوا الكتابَ ويزدادَ الذين آمنوا إيماناً ولا يرتابَ الذين أوتوا الكتابَ والمؤمنون وليقولَ الذين في قلوبِهِمْ مرضٌ والكافرون ماذا أرادَ اللهُ بهذا مَثَلاً كذلكَ يُضِلُّ اللهُ مَن يشاءُ ويَهدي مَن يشاءُ وما يَعلمُ جنودَ ربِّكَ إلّا هوَ وما هي إلّا ذكرى للبشَر. كلّا والقمر. والليلِ إذْ أدبَر. والصبحِ إذا أسفَر. إنّها لَإحدى الكُبَر. نذيراً للبشَر. لِمَن شاءَ منكمْ أنْ يتقدَّمَ أو يتأخَّر. كلُّ نفْسٍ بما كسَبَتْ رهينةٌ. إلّا أصحابَ اليمينِ. في جَنّاتٍ يتساءلون. عن المجرمين. ما سلككُمْ في سقَر. قالوا لم نَكُ من المُصلّين. ولم نَكُ نُطعِمُ المِسكين. وكُنّا

نخوضُ مع الخائضين. وكنّا نُكذِّبُ بيوم الدِّين. حتّى أتانا اليقين. فما تَنفعُهمْ شفاعةُ الشافعين. فما لهم عنِ التذكرةِ مُعْرِضين. كأنّهمْ حُمُرٌ مستنفِرةٌ. فرّتْ مِن قَسْوَرَةٍ. بل يُريدُ كلُّ امرئٍ منهم أنْ يُؤتَى صُحُفاً مُنَشَّرةً. كلّا بل لا يخافون الآخرة. كلّا إنّه تذكرةٌ. فمن شاء ذَكَرَه. وما يَذْكرون إلّا أن يشاءَ اللهُ هو أهلُ التقوى وأهلُ المغفِرة.

كما نجد ما لا يقلّ عن 60 موقعاً آخر اجتمع في كلٍّ منها لفظان أو أكثر، لم تعتد الأذن العربيّة تَجاورَها قبل القرآن، أو تَجاورَها بهذه الطريقة أو السياق على الأقلّ. وقد عمدنا إلى وضع خط تحت هذه المواقع لإبرازها للقارئ. ونذكّر من جديدٍ بضرورة التخلّص من ذاكرتنا اللغويّة الحاليّة إذا أردنا الإمساك بجدّة الموقع وإدراك تميّزه عن لغتنا البشريّة :

يا أيّها المدّثّر. قُمْ فأنذِر. وربَّكَ فكبِّرْ .وثيابَكَ فطهّر. والرُجْزَ فاهجُر. ولا تَمنُنْ تستكثِرْ. ولربِّكَ فاصبِر. فإذا نُقِرَ في الناقور. فذلك يومَئذٍ يومٌ عسيرٌ. على الكافرين غيرُ يسيرٍ. ذَرني ومَن خَلقْتُ وحيداً. وجعلتُ له مالاً ممدوداً. وبنينَ شُهوداً. ومهّدْتُ له تمهيداً. ثمّ يَطمعُ أن أزيدَ. كلّا إنّه كان لآياتنا عنيداً. سأُرهقُه صَعوداً. إنّه فكَّرَ وقَدَّر. فقُتِلَ كيف قَدَّر. ثمّ قُتِلَ كيف قَدَّر. ثمّ نَظَر. ثمّ عبَسَ وبَسَر. ثمّ أدبَرَ واستَكبَر. فقال إنْ هذا إلّا سِحْرٌ يُؤثَر. إنْ هذا إلّا قولُ البشر. سأُصْلِيْه سَقَر. وما أدراكَ ما سَقَر. لا تُبْقي ولا تَذَر. لَوّاحةٌ للبَشَر. عليها تسعةَ عشَر. وما جَعَلْنا أصحابَ النارِ إلّا ملائكةً وما جَعلْنا عِدّتَهم إلّا فتنةً للذين كفروا ليستيقنَ الذين أوتوا الكتابَ ويزدادَ الذين آمنوا إيماناً ولا يرتابَ الذين أوتوا الكتابَ والمؤمنون وليقولَ الذين في قلوبِهِمْ مرضٌ والكافرون ماذا أرادَ اللهُ بهذا مَثَلاً كذلكَ يُضِلُّ اللهُ مَن يشاءُ ويَهدي مَن يشاءُ وما يَعلمُ جنودَ ربِّكَ إلّا هوَ وما هي إلّا ذكرى للبشَر. كلّا والقمر. والليلِ إذْ أدبَر. والصبحِ إذا أسفَر. إنّها لَإحدى الكُبَر. نذيراً للبشَر. لِمَن شاءَ منكمْ أنْ يتقدَّمَ أو يتأخَّر. كلُّ نفْسٍ بما كسَبَتْ رهينةٌ. إلّا أصحابَ اليمينِ. في جَنّاتٍ يتساءلون. عن المجرمين. ما سلككُمْ في سَقَر. قالوا لم نَكُ

من المُصلِّين. ولم نَكُ نُطعِمُ المِسكين. وكُنّا نخوضُ مع الخائضين. وكنّا نُكذِّبُ بيوم الدِّين. حتّى أتانا اليقين. فما تَنفعُهمْ شفاعةُ الشافعين. فما لهم عنِ التذكرةِ مُعْرِضين. كأنّهمْ حُمُرٌ مستنفِرةٌ. فرّتْ مِن قَسْوَرَةٍ. بل يُريدُ كلُّ امرئٍ منهم أنْ يُؤتَى صُحُفاً مُنَشَّرةً. كلّا بل لا يخافون الآخرة. كلّا إنّه تذكرةٌ. فمن شاء ذَكَرَه. وما يَذْكرون إلّا أن يشاءَ اللهُ هو أهلُ التقوى وأهلُ المغفِرة.

ومع التقاء كلّ هذه الجوانب الجديدة التي بذّ بها القرآن الكريم لغة العرب، بأطرافها المتنوّعة، فإنّ الثورة التجديديّة لم تقتصر على اللغة وحدها، بل تجاوزتها إلى الجانب الخيالي، متمثّلاً في الصورة البيانيّة والاستعمالات المجازيّة والأساليب البلاغيّة الجديدة في التعبير، وهو ما سيكون موضوع دراستنا في الباب التالي.